السنة الثانية ليسانس مقياس، تاريخ وحضارة المغرب والاندلس.

الدرس الثامن: خلفاء الفاطميين في المغرب (الدول البربرية المستقلة).

1 دولة بني زيري الصنهاجية.

الأوضاع العامة قبل قيام دولة بني زيري.

لما عزم المعز الفاطمي على الرحيل الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه على المغرب ممن يتوفر فيه صدق التشيع، ورسوخ القدم في الدراية بالإقليم مع أنه كان يدرك أن نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب لن يدوم طويلا، لما كان يعرفه من شدة مراس البربر وطبيعتهم الثورية، وبعد محاولات عديدة وقع اختياره على بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، أحد رجالات الدولة من صنهاجة فوافق على ذلك ومن شروط المعز: -إبقاء التبعية للفاطميين، الحكم باسم الفاطميين على المذهب الشيعي مذهبا رسميا في افريقية والمغرب.

أصدر المعز الفاطمي له عهدا بولاية افريقية وسماه يوسف ولقبه بأبي الفتوح وأوصاه بمواصلة الحملات على المغرب الأوسط لحسم الوضع والقضاء على نفوذ الأمويين الأندلسيين، وبالتالي فإنه أول مرة يصبح فيها رجل من صميم أهل المغرب على رأس دولة إسلامية غي بلاد المغرب وبذلك دخلت تجارب الحكم الإسلامي غي المغرب في دور جديد وهو دور الاستقلال، كما أصبح منذ ذلك الحين بلكين بن زيري نائبا للفاطميين في حكم بلاد المغرب وامتدادا لهم ضد زناتة والخلافة الأموية في الأندلس. (عبد العزيز سالم، المغرب الكبير العصر الإسلامي)

ومن العوامل المساعدة على اختيار بلكين (مكانة بيته الرفيعة ودوره في الساحة السياسية، قوته ودهائه وكثرة اتباعه واعترافا بفضله وفضل قبيلته في الدفاع عن الخلافة الفاطمية، فضل قبيلته صنهاجة في إنقاذ الفاطميين اثناء محنتهم مع أبي زيد مخلد الخارجي الذي حاصر المهدية، مساندته لجوهر الصقلي في اخماد ثورات قبيلة زناتة والامويين.

الصراع بين زناتة وصنهاجة وآثاره:

كان وصول بيت بنو زيري بن مناد الى الحكم بتايد من القبائل الصنهاجية الكبرى عاملا مهما في إثارة نيران العداوة والتنافس بين صنهاجة وزناتة، بعد سيطرة صنهاجة على الحكم خشي زعيم زناتة جعفر بن حمدون على نفسه وقبيلته فلجأ الى الحكم المستنصر في الأندلس الذي رحب به في بلاطه وشجعه فثار الزناتيون في افريقية وتاهرت فتوجه إليهم بلكين لإخضاعهم ودخل تاهرت فخربها.

ومن جهة أخرى أضاف المعز الى بلكين ولاية طرابلس وسرت واجدابية فولى عليها يحي بن خليفة وبذلك اتسع نفوذ الفاطميين نحو الشرق ليصل الى برقة، كان رد فعل الزناتيون المدعومين من الأندلسيين هو السير نحو سجلماسة الموالية للفاطميين، ونتيجة لهذا التحالف الزناتي الأندلسي عمل بلكين على غزو المغرب الأقصى ودخل فاس الا انه تنازل عنها بعد هزيمته أمام الزناتيون والاندلسيين واكتفى بحكم افريقية والمغرب الأوسط.(السلاوي، الاستقصاج1)

وبعد وفاة يوسف أبي الفتوح خلفه المنصور سنة 383هـ الذي كان يوسف قد أوصى له بالإمارة وواجهته عدة مشاكل أبرزها استمرار غارت قبائل زناتة، وكذلك صراعه مع أحد اعمامه أبي البهار، ثم خلفه سنة 386هـ باديس بن المنصور الذي اقطع عمه حماد بن يوسف مدينة اشير وولاه عليها، وفي سنة 406 خلفه المعز بن باديس تولى الحكم صغيرا حكم مدة طويلة فظهرت مهارته الإدارية الا ان الظروف التي ألمت بالمغرب حالت بينه وبين التوفيق الكامل فتفككت الدولة وتدهورت احوالها.

حاول حل أكبر مشاكل الدولة وهي القضاء على نزعة الانفصال عند بني حماد وخاض معهم حروبا طويلة حقق فيها العديد من الانتصارات واجبر حماد على طلب الصلح على أساس أن يكون تابعا للقيروان ويتمتع باستقلال محلي في المغرب الأوسط وتم له ذلك سنة 408هـ وهو ما يعتبر ميلاد الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

انفصال دولة بنو زيري عن الفاطميين. إن انشغال الفاطميين بالاهتمام بأمر المغرب وافريقية بعد الانتقال الى مصر وتغير مركز الخلافة الشيعية، واكتفاء بنو زيري بالولاء والطاعة الاسمية، قد جعل محاولاتهم للاستقلال تتخذ خطوات جدية وعملية واضحة، وأصبح من الصعب عودة افريقية والمغرب الأوسط لتبعية المشرق مجددا.

بعد وفاة المعز الفاطمي وقيام العزيز بالأمر وجد هذا الأخير محاولاتهم للاستقلال جدية ففكر في وضع العراقيل أمام طموحاتهم فأرسل داعية الى كتامة (أبو الفهم) لإثارة كتامة على المنصور الا ان أمر الداعية لم ينجح، وبعد تولي الحاكم بأمر الله الفاطمي الحكم عمل على اختبار قوة بني زيري فأوعز الى حاكمه على برقة بالاستلاء على طرابلس التابعة لبني زيري، الا أن نصير الدولة تمكن من هزيمته، ثم أراد ثانية منحها الى أعدائهم من الزناتيين الا أن الامر فشل مرة أخرى.

تغيرت الأحوال في دولة بني زيري بعد تولي المعز بن باديس سنو 406هـ والذي كان يتمتع بالمهارة والقوة وكان يسعى للاستقلال وإلغاء المذهب الشيعي في دولته، فقد أعلن سنة 440هـ في القيروان عودته الى المذهب السني المالكي حتى أنه أرسل الى القائم بأمر الله يطلب منه العهد بتوليه على افريقية والمغرب، وبالتالي انفصلت الدولة الصنهاجية عن الفاطميين.

الغزوة الهلالية لبلاد المغرب.

في عهد المستنصر الفاطمي وقعت الحرب بين القبائل الهلالية وعم فسادهم وضررهم وتدميرهم في البلاد المصرية خاصة في صعيد مصر، وأضحت مشكلة كبيرة للفاطميين في مصر.

وبعد تخلي المعز بن باديس عن المذهب الشيعي وتبعيته للدولة العباسية فكر الوزير الفاطمي الحسن اليازوري بفكرة الاستفادة من بني هلال، حيث عمل على اقتطاعهم بلاد افريقية والمغرب وينقلهم اليها ويضربهم ببعضهم البعض، وبالتالي يحقق من وراء ذلك هدفين (إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بني زيري كان خيرا للفاطميين وعقبا لبني زيري على تخليهم عن المذهب الشيعي وعودتهم للسنة، واذا حدث العكس وقضى بنو زيري على الهلالين كان ذلك خلاصا من هؤلاء دون ان يخسر الفاطميون شيئا.

وهكذا انتقل الهلاليون الى برقة سنة 446هـ فوجدوها خالية بسبب الحروب الطاحنة و الطويلة بين القبائل البربرية (زناتة وصنهاجة) فاستقر نفر منهم بها وانطلق قسم آخر نحو طرابلس وافريقية فاستقروا بها، تولى القا العلالي مؤنس بن يحيى الرياحي الذي انعقدت له الرياسة على بني هلال وبني سليم، وسميت هجرتهم بتغريبة بنو هلال أو الغزوة الهلالية، ورغم تصور المعز بن باديس أنه يمكن

الاستعانة بهم على خصومه و الاعتماد عليهم كجيش الا أن الوقت قد فاته وتثبتوا وجودهم بأفريقية، فلجا الى الاستعانة بابن عمه صاحب القلعة حماد الذي استصرخ زناتة وبقية العرب البلدين.(ابن خلدون، العبر ج6)

جرت معركة حيدران قرب قابس تغلب فيها بنو هلال وقضي على جيش المعز تماما ودخلوا القيروان سنة 445هـ وخلفه ابنه تميم الذي انحصرت سلطته في المهدية فقط، وبالتالي كان أفول الدولة الزيرية التي انقسمت الى اقطاعات، وبسبب هذه الأوضاع وانشغال الزيريين بالحروب مع الهلالين استغل النورمان الفرصة للتحرش على سواحل افريقية بعد أن استولوا على صقلية فاستنجد أهلها بالمرابطين في المغرب الأقصى ومن بعدهم الموحدين.

2دولة بني حماد في المغرب الأوسط

عجز بنو زيري عن بسط نفوذهم وسلطانهم على كل أنحاء المغرب الأدنى والأوسط بسبب الثورات المتعددة من زناتة وكتامة، ومن ثم رأى المنصور بن بلكين بن زيري توزيع السلطات بتولية أخيه حماد على أشير والمسيلة.

امد حماد يد المساعدة الى ابن أخيه باديس ضد زناتة فكان فافرد باديس ولاية أشير و المغرب لعمه حماد سنة 387هـ ليواجه ثورات زناتة، ومن جانب اخر انتهز حماد تكليف الأمير باديس له بالقضاء على زناتة فاشترط على ابن أخيه ان يوليه المغرب الأوسط وكل بلد يفتحه، وفعلا شرع حماد في سنة 398هـ في بناء مدينة جديدة عرفت بالقلعة (قلعة بني حماد) لاتخاذها عاصمة لدولته واستقر بها حتى وصفها الإدريسي وصفا رائعا، كان من الطبيعي الا يرضى حماد عن انتزاع هذه المنطقة من سلطانه بل امتنع ورفض الاعتراف بولي العهد وقطع الدعوة الاسماعلية وقتل الرافضة واظهر السنة.

ويمكن أن نقول أن حماد كان اول من أعلن انفصاله السياسي والروحي عن الخلافة الفاطمية في مصر وأنه سبق المعز بن باديس في ذلك.

جرت عدة معارك بين باديس وحماد انتهت في الأخير بعقد الصلح سنة 408هـ نصت على استقلال الحمادين بالمسيلة وطبنة والزاب وأشير.(ابن عذارى، البيان ج1)

وهكذا انقسم ملك بني زيري الى دولتين، الدولة الزيرية في القيروان ودولة بني حماد في القلعة وبذلك فقدت الدولة الزيرية السيطرة على الجزء الأكبر من دولته في الوقت الذي صار فيه الحماديون حاملين للواء السنة في المغرب الأوسط، استفاد الحماديون من الظروف المواتية ليقيموا علاقات خارجية طيبة خاصة مع الفاطميين مما أتاح لمدينة القلعة وبجاية احتلال مكانة القيروان التجارية والفكرية في المغرب، وخاصة بعد أن هاجر الناس اليها بسبب الغزوة الهلالية.

لما توفي حماد سنة 419 هـ 1082م خلفه ابنه القائد الذي سار على نهج أبيه وخلع طاعة المعز بن باديس والدولة الفاطمية مما جعل المعز يحاصر القلعة لمدة عامين حتى تم الصلح بينهما.

توفي القائد بن حماد سنة 446هـ 1054م وخلفه ابن محسن، لكنه لم يبقى في الحكم أكثر من 9 أشهر حيث قتل من طرف عمه بلكين بن محمد بن حماد الذي اعتل الامارة سنة 447هـ الا أن قتل كذلك على يد ابن عمه الناصر بن علناس، الذي وصل الى الحكم سنة 454هـ وقد اتسعت دولته الى أن بايعه اهل القيروان سنة 460هـ وقد أدى التدخل المتزايد من عرب بني هلال في الدولة الحمادية الى تعذر الإقامة في القلعة مما حمل الناصر على اختيار موقع بجاية والتي انتقل اليها سنة 461هـ والتي سماها بالناصرية.

توفي الناصر سنة 481هـ وخلفه ابنه المنصور الذي بلغت الدولة الحمادية في عصره أوجها، وكان أخر امراء الدولة الحمادية يحي بن العزيز بن المنصور الذي طالت أيامه وتميز بالضعف مما مكن عرب بني هلال من القضاء على عمرانه، ولم يستطيع إعادة الدولة الى ما كانت عليهن لتنتهي هذه الدولة على يد الموحدين سنة 547هـ 1152.(ابن خلدون، العبر ج6)